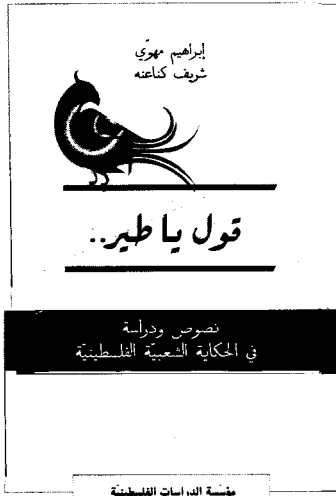


على طاولة جوزيف سماحة

هَيِّجَتِكَ الْمَقْبَلَاتُ؟ لِنَتَقَلُّ، إِذْنِ، إِلَى أَخْبَارٍ أَكْثَرَ دَسْمًا.

وأول ما أحب أن أنقله إليك يا صديقي هو تزايد الاعتداءات على الكاتب والكتاب في الوطن العربي خلال الأسابيع الماضية التي تلت رحيلك. لعلك تذكر أن نوال السعداوي غادرت، قبيل غيابك، مصر إلى بلجيكا بعد أن قدم المحامي نبيل الوحش (هذا اسمه، على فكرة، لا لقبه) بلاغاً تكفيرياً ضدها وضد ابنتها منى حلمي في نهاية كانون الثاني. والوحش، نفسه، سبق أن قدم بلاغاً إلى النائب العام ضد الإعلامية هالة سرحان بتهمة تشويه سمعة مصر بسبب حلقة أعدتها لقناة روتانا عن «بنات الليل». على كل حال، بعد حادثة السعداوي وسرحان، جاءنا خبر إتلانف ١٥٠٠ نسخة من كتاب قول يا طير في فلسطين بحجة احتوائه تعبيرات تخدش الحياء، مثل: «فحبة» و«شرموطة» و«بزاز» (بالمناسبة، هل يُسمح لكم، فوق، بتداول هذه المفردات؟). ويا جوزيف، لا يمكن أن تتصور حجم الاعتراض الذي اكتسح الساحة الفكرية العربية: سُيرت المظاهرات الشاجبة، وصدرت البيانات المنددة، وصدحت موسيقى الحرية، حتى اضطّر وزير التربية والتعليم الفلسطيني ناصر الشاعر (من حركة حماس) إلى التبرؤ من إجراءات التلّف والزعم أنها تمت من دون علم وزارته (حصل معنا نفاقٌ شبيه قبل خمسة أعوام، حين زعمت الرقابة المصرية أنها لم تمنع عدد الآداب المخصّص للرقابة في مصر، مع أنها أبلغت شركة التوزيع العكس). لكن، بعد أن تراجعت الوزارة المذكورة، تواصلت الاحتجاجات (وراهم وراهم والزمن طويل!)، وانهار التقييع على حكومة حماس، وعلى وزيرها الذي رُمي بمختلف النعوت، وضمّنها نعوت استشرافية من قبيل «متخلف» و«غير حضاري».



«قول يا طير» يفضح القامعين...
والمناققين معا.

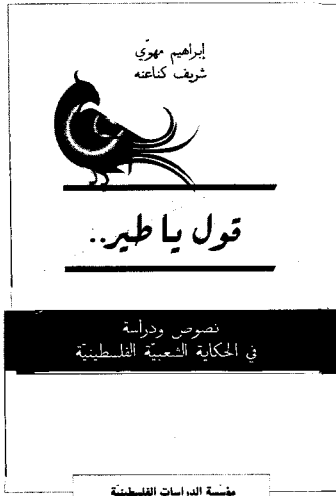
طبعاً، حماس ووزيرها يستحقّان البهذلة. بل إن ما طاولتهما لا معنى له إلا إذا ترائف مع إعادة طبع ما أتلّف، والاعتذار إلى مؤلّفَي الكتاب (كناعنة ومهوي) وإلى القراء عامة. ولكنني أراك تتساءل معي، يا جوزيف، أين كان أولئك المثقفون الزاعقون، الصاخبون، الشاجبون، المستنكرون، حين اعتدت سلطة حركة «فتح» على حرية الفكر والتعبير؟ حفنة قليلة منهم فحسب استنكرت منع الرئيس الشهيد عرفات كتابي إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية ونهاية عملية السلام (ولا يقولن قائل إنهما لم يمنعا؛ فهما من إصدار دار الآداب التي أعمل فيها). وأين كانوا حين منعت صحيفة النهار الفلسطينية من دخول المناطق الخاضعة لسيطرة السلطة السابقة (غزة وأريحا آنذاك) لمدة شهر، بعد أن نشرت مقالاً انتقد اتفاقيات أوسلو؟^(١) ومنّ منهم زعق ضدّ دخول صحيفة القدس إلى غزة لعدة أيام بعد سنة تقريباً من حصول الحادثة أعلاه؟^(٢) ومنّ منهم شجّب واستنكر

١ - ٢ - عدنية شبلي، «الرقابة الذاتية في الإعلام الفلسطيني»، الآداب ٨/٧، ٢٠٠٤، ص ٧١-٧٣.

على طاولة جوزيف سماحة

هيجتك المقبلات؟ لننتقل، إذن، إلى أخبار أكثر دسماً.

وأول ما أحب أن أنقله إليك يا صديقي هو تزايد الاعتداءات على الكاتب والكتاب في الوطن العربي خلال الأسابيع الماضية التي تلت رحيلك. لعلك تذكر أن نوال السعداوي غادرت، قبيل غيابك، مصر إلى بلجيكا بعد أن قدم المحامي نبيل الوحش (هذا اسمه، على فكرة، لا لقبه) بلاغاً تكفيرياً ضدها وضد ابنتها منى حلمي في نهاية كانون الثاني. والوحش، نفسه، سبق أن قدم بلاغاً إلى النائب العام ضد الإعلامية هالة سرحان بتهمة تشويه سمعة مصر بسبب حلقة أعدتها لقناة روتانا عن «بنات الليل». على كل حال، بعد حادثة السعداوي وسرحان، جاءنا خبر إتلاف ١٥٠٠ نسخة من كتاب قول يا طير في فلسطين بحجة احتوائه تعبيرات تخدش الحياء، مثل: «قحبة» و«شرموطة» و«بزاز» (بالمناسبة، هل يُسمح لكم، فوق، بتداول هذه المفردات؟). ويا جوزيف، لا يمكن أن تتصور حجم الاعتراض الذي اكتسح الساحة الفكرية العربية: سيرت المظاهرات الشاجبة، وصدرت البيانات المنددة، وصدحت موسيقى الحرية، حتى اضطّر وزير التربية والتعليم الفلسطيني ناصر الشاعر (من حركة حماس) إلى التبرؤ من إجراءات التلّف والزعم أنها تمت من دون علم وزارته (حصل معنا نفاقٌ شبيه قبل خمسة أعوام، حين زعمت الرقابة المصرية أنها لم تمنع عدد الآداب المخصّص للرقابة في مصر، مع أنها أبلغت شركة التوزيع العكس). لكن، بعد أن تراجعت الوزارة المذكورة، تواصلت الاحتجاجات (وراهم وراهم والزمن طويل!)، وانهار التقييع على حكومة حماس، وعلى وزيرها الذي رُمي بمختلف النعوت، وضمّنها نعوت استشرافية من قبيل «متخلف» و«غير حضاري».



«قول يا طير» يفضح القامعين...
والمناققين معا.

طبعاً، حماس ووزيرها يستحقّان البهذلة. بل إن ما طاولتهما لا معنى له إلا إذا ترائق مع إعادة طبع ما أتلّف، والاعتذار إلى مؤلّفَي الكتاب (كناعنة ومهوي) وإلى القراء عامة. ولكنني أراك تتساءل معي، يا جوزيف، أين كان أولئك المثقفون الزاعقون، الصاخبون، الشاجبون، المستنكرون، حين اعتدت سلطة حركة «فتح» على حرية الفكر والتعبير؟ حفنة قليلة منهم فحسب استنكرت منع الرئيس الشهيد عرفات كتابي إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية ونهاية عملية السلام (ولا يقولن قائل إنهما لم يمنعا؛ فهما من إصدار دار الآداب التي أعمل فيها). وأين كانوا حين منعت صحيفة النهار الفلسطينية من دخول المناطق الخاضعة لسيطرة السلطة السابقة (غزة وأريحا آنذاك) لمدة شهر، بعد أن نشرت مقالاً انتقد اتفاقيات أوسلو؟^(١) ومنّ منهم زعق ضدّ دخول صحيفة القدس إلى غزة لعدة أيام بعد سنة تقريباً من حصول الحادثة أعلاه؟^(٢) ومنّ منهم شجب واستنكر

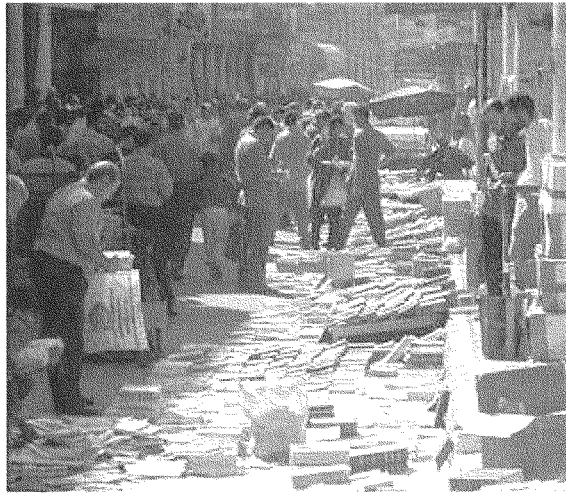
١ - ٢ - عدنية شبلي، «الرقابة الذاتية في الإعلام الفلسطيني»، الآداب ٨/٧، ٢٠٠٤، ص ٧١-٧٣.

وأدان اعتقال الصحفي داود كُتاب بسبب نشره مقالاً انتقد فيه عمل السلطة؟^(١) ووقائع المنع والقمع أثناء حكم «فتح» وهيمنة «عبدة رب السلطة» أكثر من أن تحصى. وكل هؤلاء كانوا يبررون «أخطاء» السلطة السابقة بأنها ماتزال «في بداية طريقها»، وأن علينا - من ثم - أن نغض الطرف قليلاً حرصاً على التجربة الفلسطينية الرائدة من الانهيار. الطريف، يا صديقي، كما تلاحظ، هو أن مقرعي حركة «حماس» الآن لا يستخدمون الحجّة نفسها للتخفيف من أخطاء حماس، مع أن الحركة الأخيرة تخوض اليوم، هي الأخرى، تجربة جديدة في الحكم! وبكلمة، فإن ما فعله مستنكرو اليوم / مبررو الأمس انتهازي، ومعيب، ومحقرٌ للحريّة، لأنهم يستخدمون «الدفاع» عنها محض سلاحٍ للانقضاض على خصومهم السياسيين... لا غير.

إنّ النزعات القمعية أو الساكتة عن القمع مقيتة فعلاً يا جوزيف، سواء جاءت من نبيل الوحش أو عبد الصبور شاهين (مكفر نصر حامد أبي زيد) أو حماس أو القاعدة أو الإخوان أو الرهبانيات المارونية أو المعتدين على الأب غريغوار حدّاد... أو جاءت أيضاً من انتهازيي العُلمانية والماركسية والليبرالية... أو من المنظّمات غير الحكومية التي أكثر ما ترفع عقيرتها بالمواطنة والديموقراطية حين يكون الجاني جهةً سياسيةً دينيةً، لكنها تصمت صمت القبور عن شطب السلطة الفلسطينية لحق العودة، أو اعتقالها لأحمد السعدات، أو تسليمها المناضلين المحاصرين في كنيسة المهدي إلى العدو الصهيوني، على سبيل المثال لا الحصر.



الحادثة الثانية التي طاولت الفكر والكتب أثناء غيابك يا جوزيف هي تفجير شارع المتنبّي في بغداد. فلقد أفادت الأخبار منذ أيام أن «انتحارياً» فجر نفسه هناك، فقتل المتنبّي وعروة بن الورد والجاحظ وأبا الفرج والكواكبي وكتاب شعر والآداب



شارع المتنبّي: هل سارقو المتحف يعجزون عن تفجير الكتب؟

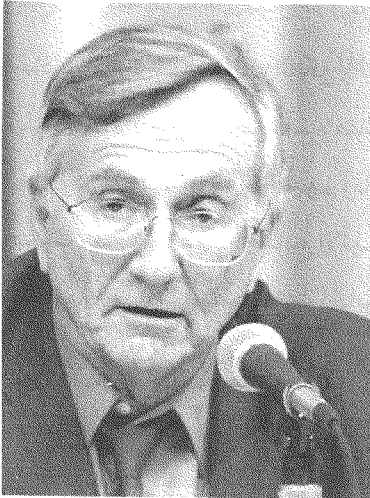
معاً، ودفعةً واحدة، مع محبيهم وباعتهم وشرايتهم. وكما حرّرت، فقد وجّهت أصابع الاتهام فوراً إلى «القاعدة» والمقاومة العراقية، واستبعدت الاخبار الأميركية بالطبع: فالأميركان لا يفعلونها. أعود بالله. هم لم ينهبوا المتحف العراقي عام ٢٠٠٣. وتجّارهم لم يسرقوا اللوحات والآثار العراقية ثم باعوها. وكل الذين يزعمون مثل هذه الترهات هم أصحاب «نظرية المؤامرة» من القومجيين الخشبيين المنقرضين (المنقرطين) الذين يضعون صورة عبد الناصر قرب طاولتهم، مثلك يا جوزيف، ويؤهمون أنفسهم والآخرين بأن أميركا مبعث كل الشرور في الدنيا والآخرة.

١ - المصدر السابق.

أَتَخِيلُكَ الْآنَ تَصْفَن، وَتَحَاوَلُ أَنْ تَسْتَعِيدَ شَيْئًا. لَعَلَّكَ تَحَاوَلُ أَنْ تَتَذَكَّرَ أَيْنَ قَرَأْتَ مَا قَدْ يَعَزِّزُ شَكوكَنَا الْمُؤَامراتِيَّةَ. لَا تَقْلُقْ. لَقَدْ وَضَعْتُ فِي كُومَةِ الْمَقَالَاتِ مَقَالَ جُو كُونِ (Joe Quinn)، الَّذِي لَا أَشْكُ فِي أَنَّكَ قَرَأْتَهُ قَبْلَ رَحِيلِكَ. وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّكَ تَعِيدُ قِرَاءَتَهُ، وَتَبْتَسِمُ:

فَهَذَا الْكَاتِبُ يَسْتَنْدُ إِلَى شُهُودِ عِيَانِ عِرَاقِيِّينَ لِيُثَبِّتَ أَنَّ الْخَبَارَاتِ الْأَمِيرِكِيَّةَ تَقُومُ بِالكَثِيرِ مِنَ التَّفْجِيرَاتِ «الانتحارية» فِي الْعِرَاقِ، وَلَا سِيَّمَا فِي الْمَنَاطِقِ ذَاتِ الْكثَافَةِ السُّنِّيَّةِ أَوِ الشَّيعِيَّةِ. فَمَثَلًا، يُصَادِرُ الْجُنُودُ الْأَمِيرِكِيُّونَ رَخِصَةَ قِيَادَةِ سِيَّارَةٍ، تَابِعَةٌ لِأَحَدِ الْعِرَاقِيِّينَ، وَيَطْلُبُونَ مِنْهُ اسْتِرْدَادَهَا مِنْ مَعْسَكِرِ أَمِيرِكِي قَرِبَ مَطَارِ بَغْدَادِ. فَيَذْهَبُ الْعِرَاقِيُّ الْمَسْكِينُ إِلَى هُنَاكَ بِسِيَّارَتِهِ، وَيَدْخُلُ غُرْفَةً لِلتَّحْقِيقِ يَمُكِّثُ فِيهَا نِصْفَ سَاعَةٍ. هُنَاكَ يُخْبِرُونَهُ أَنَّ الْعِرَاقِ «بَاتَ مُسْتَقْلَلًا»، وَأَنَّ عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَرِدَّ رَخِصَتَهُ مِنْ مَرَكِزِ لِلشَّرْطَةِ الْعِرَاقِيَّةِ فِي الْكَاطِمِيَّةِ. يَتَوَجَّهُ صَاحِبُنَا إِلَى الْكَاطِمِيَّةِ، لَكِنَّهُ لَا يَلْبِثُ أَنْ يَشْعُرَ بِثِقَلٍ فِي سِيَّارَتِهِ، وَيَشْتَبِهَ فِي تَحْلِيْقِ طَوَافَةِ أَمِيرِكِيَّةِ فَوْقَهُ طَوَالَ الطَّرِيقِ. يَتَوَقَّفُ وَيَفْحِصُ سِيَّارَتَهُ، فَيَعْتَرِ عَلَى كَمِيَّةٍ كَبِيرَةٍ مِنَ الْمَتَفَجَّرَاتِ فِي الْمَقْعَدِ الْخَلْفِيِّ وَفِي الْبَابِيْنِ الْخَلْفِيِّينَ. وَيَتَضَحَّ لَهُ أَنَّ الْأَمِيرِكَانَ فَخَّخُوا سِيَّارَتَهُ أَتْنَاءَ التَّحْقِيقِ وَأَرْسَلُوهُ بِهَا إِلَى حَيِّ الْكَاطِمِيَّةِ... ذِي الْغَالِبِيَّةِ الشَّيعِيَّةِ!

تَشْتَمُ أختُ الْخَبَارَاتِ الْأَمِيرِكِيَّةِ، وَتَوَاصَلَ قِرَاءَةَ سِرِّ جُو كُونِ لِإِفَادَاتِ شُهُودِ عِيَانِ عِرَاقِيِّينَ قَابِلَهُمْ شَخْصِيًّا. الْحَاجُّ حِيدَرُ أَبُو



سيمور هيرش . أمير كا قد تدعم ألد أعدائها في مواجهة إيران وحزب الله .

سَجَادُ (٦٤ عَامًا) كَانَ يَقُودُ شَاحِنَتَهُ الْمَعْبَأَةَ بِالْبِنْدُورَةِ، بِرَفْقَةِ ابْنِهِ (١١ عَامًا)، مَتَّجِهِيْنِ مِنَ الْحَلَّةِ إِلَى بَغْدَادِ. يُوقِفُهُ حَاجِزُ أَمِيرِكِي وَيَسْأَلُهُ عَنِ وِجْهَتِهِ، ثُمَّ يَفْتَشُ الشَّاحِنَةَ بَعْدَ أَنْ يَطْلُبُ مِنْهُمَا مَغَادِرَتَهَا. وَمَا إِنْ يُوَاصِلُ الْحَاجُّ وَابْنُهُ رَحِلَتَهُمَا إِلَى بَغْدَادِ حَتَّى يَنْبَهُ الْابْنُ أَبَاهُ إِلَى أَنَّهُ رَأَى الْجُنُودَ يَضَعُونَ فِي الشَّاحِنَةِ شَيْئًا رَمَادِيًّا بِحِجْمِ الْبَطِيخَةِ. يُوقِفُ الْأَبُ سِيرَهُ وَيَفْتَشُ الشَّاحِنَةَ، فَيَعْتَرِ عَلَى قَبْلَةِ مَوْقُوتَةٍ. لَقَدْ كَانَ هَدَفُ الْأَمِيرِكَانِ أَنْ يَفْجَرُوا الشَّاحِنَةَ فِي بَغْدَادِ، وَأَنْ يَدْعُوا بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّ «الانتحاريين» هُمَا مِنْ رِجَالِ الْمَقَاوِمَةِ «السُّنِّيَّةِ»!

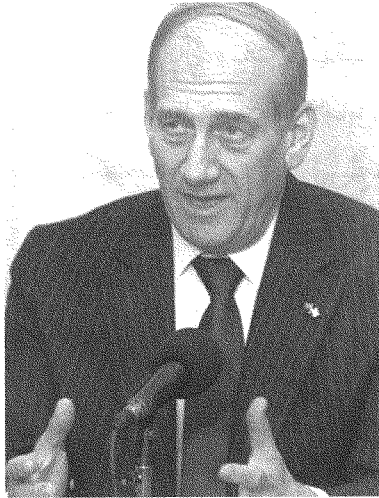
أَعْلَمُ يَا جُوزِيْفُ أَنَّ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ، وَغَيْرُهَا كَثِيرٌ، قَدْ لَا تَغْيِرُ رَأْيَ الْمَصْمُمِيْنَ عَلَى الْإِصَاقِ كُلِّ التَّهْمِ الْمَشِينَةِ بِالْمَقَاوِمَةِ الْعِرَاقِيَّةِ، وَاسْتِبْعَادِ ضُلُوعِ الْأَمِيرِكَانِ فِي أَيِّ شَيْءٍ. أَمَا نَظَرِيَّةُ «الفوضى الخلاقة»، الَّتِي قَدْ تَنْدَرِجُ ضَمْنَهَا عَمَلِيَّةُ تَفْجِيرِ شَارِعِ الْمُنْتَبِي، فَمَالَهَا، فِي رَأْيِهِمْ، هُوَ مَالٌ نَظَرِيَّةِ الْمُؤَامِرَةِ سَوَاءً بِسَوَاءٍ: إِلَى سَلَّةِ

الْمَهْمَلَاتِ. فَهِيَ نَظَرِيَّةٌ مُجْجُجَةٌ، قَدِيمَةٌ، بَلْ وَcaduc أَيْضًا، بِحَسَبِ تَعْيِيرِ الرَّئِيسِ يَاسِرِ عِرْفَاتِ، رَحِمَهُ اللَّهُ، فِي وَصْفِ الْمِشَاقِ الْوَطْنِيِّ الْفِلَسْطِينِيِّ. وَفِي الْأَتْنَاءِ، يَسْعَى كَارَهُو الذَّاتِ الْعَرَبِ إِلَى تَهْشِيمِ كُلِّ نَظَرِيَّةٍ تَفِيدُ التَّأْمَرَ الْأَمِيرِكِيَّ الْمَسْبُوقَ. وَهَكَذَا يَسْخَرُونَ، كَمَا فَعَلَ النَّائِبُ الْقَوَاتِي جُورْجُ عِدْوَانِ عَلَى الـLBC، مِنْ تَحْلِيلِ سِيمُورِ هِيرْشِ، الَّذِي كَتَبَ مَقَالًا طَوِيلًا بَعْدَ رَحِيلِكَ

بتسعة أيام. نعم، لقد وضعته ضمن ستة المقالات على طاولتك، يا جوزيف. اقرأه، رجاءً. إن هيرش يستنتج فيه أن الإدارة الأميركية تعيد توجيه سياستها العامة وعملياتها السرية في الشرق الأوسط صوب «توسيع النزاع المذهبي بين المسلمين الشيعة والسنة»، و صوب أحداث «مواجهة مفتوحة مع إيران». (١) بكلام آخر، قد نرى دعماً أميركياً للمتطرفين السنة، الذي كانوا ألد أعداء أميركا (القاعدة؟ حارقي السفارة الدنماركية في بيروت؟ جند الشام؟)، في مواجهة إيران وحزب الله. خبيصة؟ إنها لكذلك بالتأكيد. ولكن أليست هذه، يا صديقي، من معالم الفوضى الخلاقة التي يأمل الأميركيون أن تسهم في ولادة شرقهم الأوسط الجديد بعد «الإجهاد» على شرقنا الأوسط القديم؟

«إجهاد»؟

ربما تعتقد أنني أنا من يبالغ الآن في تصوير الأمور يا جوزيف، وأنتي بتُ فعلاً مسكوناً بالمؤامرة أكثر مما ينبغي. لذا، وتحسباً من أن ترميني بهذه التهمة، فقد دسستُ لك خبراً نشرته جريدة السفير بعد ثلاثة أسابيع من رحيلك عنا. (٢) يشير الخبر إلى أن ويزلي كلارك، وهو جنرال أميركي متقاعد والأمين العام السابق لحلف شمال الأطلسي، كشف أن وزارة الدفاع الأميركية أصدرت عام ٢٠٠٢ مذكرة تصف كيف «ستجهز الولايات المتحدة على سبع دول خلال خمس سنوات». نحن



يرسم أصحاب «توقيت المقاومة الخاطيء»: أولمرت يعترف بالتخطيط للغزو قبل ٤ شهور على الأقل.

الآن، إذن، لا نتحدث عن قتل شارع للكتب والثقافة، بل عن اغتيال بلدان بأكملها. والدول السبع المعنية تبدأ بالعراق، وتنتهي بإيران، مروراً بسوريا ولبنان وليبيا والصومال والسودان. ومع ذلك، يا جوزيف، لا يزال كثيرون من مثقفينا وصحافيينا يعتقدون أن نكبات منطقتنا هي، فقط، من صنع أبو عدس ورستم غزالة والزرقاوي... و«فتح الإسلام» (والأخيرة منظمة جديدة لم تكحل عينيك برؤيتها).

❖ ❖ ❖

أثقلت على صدرك بهذه الأخبار، صديقي؟

قليل من الأخبار السارة، إذن. إليك، أولاً، الغارديان في ٩/٣/٢٠٠٧. (٣)

فريئس وزراء العدو، إيهود أولمرت، اعترف، بعد عشرة أيام من غيابك، بأن إسرائيل خططت لغزو لبنان قبل أربعة شهور على الأقل من أسر حزب الله

١ - Seymour Hersh, "The Redirection," New Yorker, March 5, 2007.

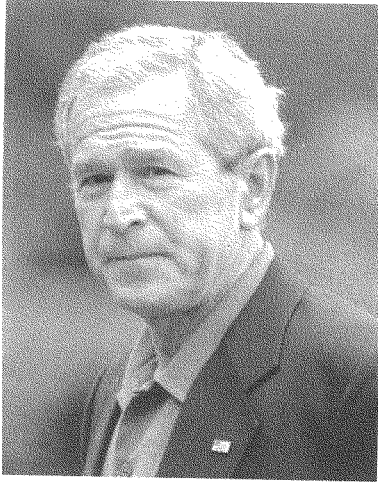
١ - السفير، ١٥/٣/٢٠٠٥.

٢ - Conal Urquhart, Guardian, March 9, 2007.

الجنديين الإسرائيليين في ١٢ تموز. خبرٌ مدهشٌ يا جوزيف، أليس كذلك؟ إنه، على الأقل، يعطينا شيئاً من الرضا الذاتي عن مواقفنا، وسط الكمّ الهائل من الخسّة الليبرالية. أتذكر حين حملَ إليك صديقنا عمر نشابة، بعد أيام قليلة من الغزو الإسرائيلي في ١٣ تموز ٢٠٠٦، بياناً بتأييد المقاومة، صُغته بنفسه، وجمعتُ خلال أيام قليلةٍ توابعَ حوالى خمسمئة عاملٍ وعاملةٍ في الشأن الثقافي في لبنان والعالم؟ كنت يا جوزيف أولَ مَنْ وَقَّعه، في حين أحجم عن ذلك كثيرون من المثقفين الآخرين، مَن لا أشكُّ في وطنيتهم، لجملة أسبابٍ، منها أنهم لم يستسيغوا إدانةً بياننا لموقف السنيورة التنصلي من عملية الأسر، ولأنهم كانوا يظنون أن الاجتياح الإسرائيلي تمّ نتيجةً لذلك الأسر. لقد غرق مثقفونا وصحافيونا آنذاك في قضية تافهة اسمها «سوء توقيت عملية الأسر». وإن اعتراف أولمرت اليوم يُثبت، لمن لا يزال يحتاج إثباتاً، أن عداء إسرائيل لنا لا علاقة له بتوقيت المقاومة، بل بوجود المقاومة نفسها، أي بوجود قرارٍ عربي، كامنٍ أو معلن، رسميٍّ أو شعبيٍّ أو فردي، باستعادة الحقوق العربية، مهما طال الزمن.



إليك أيضاً هذا الخبر السار الذي قرأته مؤخراً، وإن صدَرَ قبيل رحيلك. ومع أنني أشكُّ في ألا تكون قد اطّلت عليه لأنك، ما شاء الله، تطلّع على كلِّ شيء، فسأعرضه أمامك في أيِّ حال، ولو على سبيل التذكير. أنظر: إنه استطلاعٌ قامت به «زُغبي انترناشونال»، ذات الصدقية العالية، وصمّمه الدكتور شبلي تلحمي، وشمل ٣٨٥٠ شخصاً من مصر والأردن



«زُغبي انترناشونال»: ٨٠٪ من العرب يعتبرون إسرائيل وأميركا أكبر خطرين، و٤٠٪ يعتبرون بوش الأكثر مكرهية.

ولبنان والمغرب والسعودية والإمارات العربية، وهي بلدان تؤيد حكوماتها الولايات المتحدة. يُفيد هذا الاستطلاع بأن ٨٠٪ من العرب هناك يعتبرون إسرائيل وأميركا «أكبرَ خطرينَ خارجيينَ على أمنهم»، وأن ٦٪ فقط يعتبرون إيران هي الخطر. ويكشف الاستطلاع أيضاً أن ٤٠٪ من المستطلّعين يرون بوش الزعيم الأجنبي الأكثرَ بعثاً على الكراهية، «متقدماً» في ذلك على شارون وأولمرت معاً... وبنسبة هائلة. الأطراف من ذلك أن اللبنانيين أنفسهم (رغم ثورة الأرز) يكرهون بوش ضعفي كراهيتهم لأولمرت الذي دمرَ وطنهم قبل شهرٍ فحسب!

ويكشف استطلاع «زُغبي انترناشونال» أيضاً أن ٦١٪ من العرب يعتبرون أن حقَّ إيران متابعة برامجها النووية «ولو كانت هذه البرامج مصممةً لتطوير أسلحة نووية». ويفسر تلحمي ذلك بأن الشعب العربي «لا ينظر إلى القضايا

المهمّة بمنظار الخلاف السني - الشيعي... بل بعدسة الخلافات الإسرائيلية - الفلسطينية والغضب [العربي] على السياسة الأميركية في المنطقة.» وفي ما يخصّ العلاقات السنيّة - الشيعية تحديداً، وهي التي أحسب أنها ماتزال أحد أهمّ هواجسك

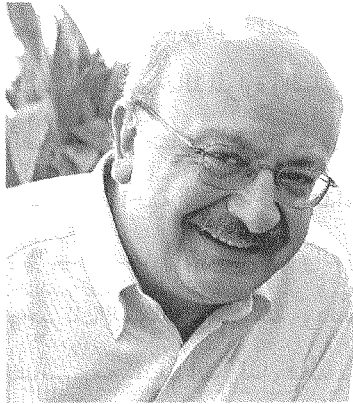
يا جوزيف ولو بعد موتك، فإنّ تلحمني يستنتج من الاستطلاع المذكور أنّ «أكثر السُّنة العرب يتّخذون جانب الشيعة في الأمور المهمّة».

ماذا يعني ذلك أيّها الحبيب؟ يعني، ببساطة، ما أُنيتَ عمرك في ترداده: وهو أنّ كلّ المحاولات الأميركية والرجعية العربية (معززة بشوريي ساتشي وغوتشي و H&C Leo Burnett) لم تُنسِ العرب عدوهم الأول: إسرائيل والسياسة الأميركية. وهذا لا يعني، طبعاً، وجوب مواصلة نقدنا للنظام الإيراني، الرجعي اجتماعياً، والقامع داخلياً، والمرتكب للاحتلال ضدّ جزر تابعة للإمارات العربية، والداعم للمليشيات الطائفية في العراق. غير أنّ الشعب العربي يدرك «بالغريزة» (التي ذكرتها مرتين في مقالك الشهير في السفير في ٢٢ / ٨ / ١٩٨٢)،^(١) وبالوقائع، أنّ لا معنى على الإطلاق لأنّ يشنّ حرباً جديدةً ضدّ «أعداء» جدّد، وهو لم يتحرّر بعد من أعدائه التاريخيين. وفي هذا الصدد، وضعتُ أمامك مقالاً كتبه بعيد رحيلك الدكتور عادل سمارة من فلسطين، وجاء فيه:

«مأ معنى أن ننتقل إلى حرب جديدة [ضدّ إيران] ونحن لم نتخلّص من الهزائم المتراكمة منذ قرون؟ وأية حرب؟ حرب هي ذاتُ الوطن، وليست على الحدود مع إيران. حربٌ ستكون في لبنان والبحرين والسعودية، والعراق بالطبع.»^(٢)

وشبيه بذلك ما كتبه محمد عبد الحكيم ذياب بعد أسبوع من غيابك:

«إننا نقرّ بأنّ هناك أخطاءً إيرانيةً في العراق والخليج. إلا أنّ إيران ليست وافدةً على المنطقة مثل الغزاة القادمين من وراء البحار. هي جزءٌ منها، مثلما العرب تماماً... وما يتمّ بالمقاومة والكفاح المسلّح ضدّ الغزاة والمحتلّين والمستوطنين أثناء معارك التحرير، يجب أن يتمّ مع إيران بالحوار والتفاوض والتشاور.»^(٣)



جوزيف سماحة: «خياراتنا صحيحة بصورة إجمالية ومبدئية.»

في افتتاحيتك للعدد الأول من الأخبار يا جوزيف كنت واضحاً حين شدّدت عليّ «أننا ننتمي، سياسياً، إلى معسكر رافضي الهيمنة، وهو معسكرٌ يمتدّ من قلب الولايات المتحدة الأميركية إلى أقاصي الشرق وأفريقيا وأميركا الجنوبية وأوروبا.» لكنّ ذلك لم يمنعك من أن تضيف، سريعاً، حرصك على «التعددية والديموقراطية والموضوعية والحدّانة والثقافة الإبداعية.»^(٤) هذا الموقف،

١ - جوزف سماحة، «جيلنا»، السفير ٢٢ / ٨ / ١٩٨٢.

٢ - كنعان، النشرة الإلكترونية ٢ / ٣ / ٢٠٠٧. www.kanaanonline.org

٣ - القدس العربي، ٣ / ٢ / ٢٠٠٧.

٤ - جوزيف سماحة، «توقيت صائب»، الأخبار، ١٤ / ٨ / ٢٠٠٦.

الواضح تجاه الخصوم الواضحين، والنقدي تجاه الحلفاء المحتملين والفعالين، هو ما يعجز عن قبوله صحفيون بليدو الذهن أمثال مايكل يونغ، الذي كتَبَ في تأبينك (أو تشويهك) أن «تأييدك لإيران وسوريا وحزب الله» قد أدى إلى انمساخك (metamorphosis) باتجاه نقيض ما كنته «في السابق» (أي قبل ترؤسك لجريدة الأخبار)، أي إلى نقيض العلمانية. (١) صحفيو الدرجة العاشرة يُزعجهم أن يروا مثقفين، أمثالك، يتحلون بالمبادئ الثورية الثابتة، وبالاستقامة الأخلاقية في الوقت نفسه: مثقفين يحاربون الهيمنة الأميركية، ويشجبون - في اللحظة عينها - القمع الأصولي واعتقال ميشيل كيلو، على سبيل المثال لا الحصر. (٢)



وأخيراً، اسمح لي يا جوزيف بأن أدس بين كومة المقالات التي وضعتها على طاولتك مقالاً تداولته بعض الصحف بعد رحيلك. إنه بقلمك أنت! ومع أنه مقال قديم جداً، كتبته قبل خمسة وعشرين عاماً، فإنه جديد بكل المعايير، حتى ليتمكن أن نقرأه اليوم، وغداً، وبعد مئة سنة، من دون أن يفقد طزاجته وراهنيته واستقامته. لقد كتبت ذلك المقال صريحة مغادرة مقاتلي الثورة الفلسطينية بيروت في آب ١٩٨٢، وفيه أعلنت التمسك بخياراتنا «رغم المرارة واليأس». (٣) وما كانت، وتبقى، خياراتنا يا جوزيف؟ إنها «لبنان العربي، والوحدة، والديموقراطية، والاشتراكية». فهذه الخيارات، كما أكدت آنذاك، تبقى «صريحة بصورة إجمالية ومبدئية».

نعم، يا رفيق. ففي فورة المنقلبين على تاريخهم وشعاراتهم وشهادتهم، وفي فورة من يحاولون «غسل ماضيهم» عن طريق تضخيم حالة المرارة واليأس، يبدو التمسك بالمبادئ، بالتاريخ والشعارات والشهداء، أمراً جديداً! على أن الجديد الفعلي الذي أضفته إلينا هو ما مارسته بكتاباتك، دفاعاً عن خياراتنا «الصريحة بصورة إجمالية ومبدئية»، من تجديد لأشكال المواجهة الثقافية ضد أعداء هذه الخيارات. فأنت لم تستكن، مثل كثير منا، من المتخشين فعلاً، إلى تلك الخيارات، ولا سيما خيارا الاشتراكية والعروبة، دوفاً تحييص. بل شَهَرْتَ عقلك اللامع، ومهنتك الرفيعة، وجرأتك النبيلة، وخبرتك السياسية الطويلة، ودفعتها - جميعها - في معركة تجديد الخيارات الصحيحة وترهينها وتبيعتها وترهيفها بما يتناسب مع المتغيرات. لذا، فإننا، معشر أنصار «الخيارات الصحيحة بصورة إجمالية ومبدئية»، نحس كل يوم بفقدانك: مؤلماً، مُبْكياً، طازجاً، جارحاً، محفزاً... وجديداً على الدوام.

بيروت

١ - Michael Young, "Joseph Samaha: Farewell to a Paradox," The Daily Star, March 1, 2007.

٢ - جوزيف سماحة، «ميشيل كيلو»، الأخبار، ٣١/١٠/٢٠٠٦.

٣ - جويف سماحة، «جيلنا»، السفير، ٢٢/٨/١٩٨٢.